

## الدرس العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- أوصي إخواني بأن يقرؤوا السيرة النبوية من القرآن الكريم، كما ذكرها الله -عزَّ وجلَّ-، وأن يلحظوا ما هي الزوايا التي طرقها الآيات القرآنية الكريمة في كل غزوة، مرت معنا غزوة بدر، ومرت معنا في الحلقة الماضية غزوة أحد، كيف تحدث القرآن عنها، ما هي مواضع الخلل؟ ما هي مواضع التميز؟ ما هي الأشياء التي أثنى القرآن عليها؟ ما هي الأشياء التي نبَّه القرآن عليها؟ فإن هذا أعني طرق السيرة، أو تأمل السيرة النبوية من خلال القرآن الكريم، بابٌ عظيمٌ من أبواب العلم، غفل عنه كثيرٌ من الناس، وركَّزوا على كتب السير، دون الانتباه لسياقات الآيات الكريمة، التي من وراءها أسرارٌ وعبرٌ لا يمكن اكتشافها، أو الوصول إليها من الجرد، أو النظر السريع في السيرة النبوية.
- ابن كثير -رحمه الله- بعدما أنهى الكلام على غزوة أحد، في الدرس الماضي، انطلق إلى الكلام على غزوة حمراء الأسد، وهي غزوةٌ متصلةٌ اتصالاً وثيقاً جداً بغزوة أحد، وذلك أن الصحابة -رضي الله عنهم- لما وقع ما وقع، كما سبق الكلام عنه، جاء جبريل إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، يقول ابن كثير: إنه لما صار يوم الأحد، تعرفون الغزوة وقعت يوم السبت في شهر شوال من السنة الثالثة، هذا يوم السبت، فلما كان يوم الأحد، ندب النبي -عليه الصلاة والسلام- المسلمين إلى النهوض في طلب العدو، إرهاباً لهم؛ حتى لا يظنوا أن انكسارهم في غزوة أحد، أنه انكسارٌ نهائيٌّ، بل ليشعروهم أنه مازال بهم قوةٌ وقدرةٌ على مطاردتهم، ولو خارج المدينة، فندب النبي -عليه الصلاة والسلام- الصحابة لذلك، ولم يأذن إلا لمن حضر أحدًا، وعذر جابرًا -رضي الله عنه- لأن أباه قد قُتل وترك خلفه سبع بناتٍ، أو تسع بناتٍ، على اختلاف الروايات.
- فخرجوا -رضي الله عنهم-، إلى حمراء الأسد، وهي منطقةٌ قريبةٌ من المدينة.
- ابن كثير يقول: إنها على ثمانية أميالٍ من المدينة، وبعضهم يعبر عنها بالكيلوات تقريباً سبعة عشر كيلو، ستة عشر كيلو، هذا معنى قول الله -عزَّ وجلَّ- في الثناء على الصحابة: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: 172] يعني الرسول يناديهم، الجراح شديدة الآن، وأُثخنوا بالجراح، وكما يقال المعنويات منهارةٌ بعد ما حصل، ومع ذلك لم يتخلفوا -رضي الله عنهم-، بل استجابوا، ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 172].

- ثم ذكر قصة مرور معبد الخزاعي، في سياقٍ موجودٍ، يعني ذكره الحافظ -رحمه الله-، فيُرجع إليه.
  - ثم بعد ذلك، يعني بعد أحد، بعث النبي -عليه الصلاة والسلام- ما يُعرف ببعث الرجيع، وهي قصة مؤلمة، أوجعت النبي -عليه الصلاة والسلام-، وضاق منها صدره، وقد وقعت في سنة أربعة من الهجرة، في شهر صفر تحديدًا، وذلك أن جماعة من هؤلاء القوم، الذين هم قوم عُضَل، والقارة، وهم من الهول من خزيمة بن مدركة، وكذلك موقعهم بين مكة والمدينة، وهم إلى مكة أقرب.
  - سألوا النبي -عليه الصلاة والسلام- حينما قَدِموا عليه، ذكروا أن فهم إسلامًا، فبعث ستة نفرًا في قول جماعة من المؤرخين، وهو ابن إسحاق الآن كما هو موجودٌ، وهو قول ابن القاسم السهيلي، أو صححه أبو القاسم السهيلي، أنهم كانوا عشرةً من الصحابة -رضي الله عنهم-، قال السهيلي: هو على الصحيح، وهو الذي ذكره البخاري، فأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وكان معهم خُبَيْب بن عدي، فذهبوا، فلما كانوا بالرجيع، وهو ماءٌ لَهْذِيل، وهذيل هم قبيلة عبد الله بن مسعود، بناحية من نواحي الحجاز، غدروا بهم، واستصرخوا عليهم القبيلة هذيل، فجاءوا بهم، وأحاطوا بهم، وغدروا -والعياذ بالله-، وكان منهم أيضًا عاصم بن ثابت -رضي الله عنه-، الذي قاتل حتى قُتِلَ، وكان قد أقسم بالله، أن لا يمس مشرَّكًا، وأن لا يمسّه مشرَّكٌ، فَبَرَّ الله -عَزَّوَجَلَّ-، قسمه جاءت حوله دبابير، التي هي ذكور النحل، تحمي جسده، فلما رأى المشركون هذا منه، تركوه، فلما جاء الليل، جاء مطرٌ كثيرٌ في الوادي، فجرف جثته، ولا يُدرى أين هي إلى الآن، فحسّى الله جسده، وأبرَّ يمينه.
  - فأحاطوا بهم، وكان ممن استأثر به خبيب بن عدي، وكذلك زيد بن الدثنة -رضي الله عنهما-.
  - ماذا صُنِعَ بهما؟ يقول ابن كثير: أما خبيب فمكث عندهم مسجونًا، ثم أجمعوا لقتله، فلما أرادوا أن يقتلوه، خرجوا به إلى التنعيم، فصلبوه، وقبل أن يقتلوه، استأذنهم، وقال: إن أذنتم أن أصلي ركعتين، فصلي ركعتين، وقال: والله لولا أن تقولوا إن بي جزعٌ من الموت، والله لزدتُ، ثم قال أبياته المشهورة:
- ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا  
على أي شقٍّ كان في الله مصرعي**
- وذلك في ذات الإله وإن يشأ  
يبارك على أوصال شلوٍ ممزع**
- وله قصةٌ مطوّلةٌ، فيها كرامةٌ، كان يأتيه عنبٌ، في وقتٍ لا يُعرف العنب في ذلك الوقت، كرامةٌ من الله -عَزَّوَجَلَّ- له.
  - أما زيد بن الدثنة -رضي الله عنه-، فإنه قُتِلَ بأحد رءوس، ابتاعه صفوان بن أمية، قبل أن يُسلم طبعًا، فقتله بأبيه، وكانت هذه نوعٌ من المقايضة للقتلى الذين قُتلوا في بدرٍ.
  - هنا مشهدٌ مؤثّرٌ أشار له ابن كثير، لعل المخرج يُخرجه مشكورًا، وهو: أن أبا سفيان قبل أن يُسلم: أيسرُّك أن محمدًا في مكانك عندنا هنا تُضرب عنقه وأنت في أهلِكَ آمنٌ؟ فقال: "والله ما يسرُّني أنِّي في أهلي، وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه، تصيبه شوكةٌ تؤذيه" -رضي الله عنهم وأرضاهم-، هذا حبٌّ صادقٌ، حبٌّ عظيمٌ، فما أحوجنا أيها الإخوة والأخوات أن نملأ قلوب أبنائنا وبناتنا، بركنين عظيمين، لا يتم بل لا يصح إيمان عبدٍ إلا بهما: الأول: حب الله -عَزَّوَجَلَّ-، وهو الأصل، والثاني: حب النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهو تبعٌ لحب الله -عَزَّوَجَلَّ-، فنحن لسنا نحب النبي -عليه الصلاة والسلام- لأنه محمدٌ بن عبد الله، بل نحن نحبه لأنه رسول الله

-عليه الصلاة والسلام-، الحب هذا أصلٌ من الأصول، وركنٌ من أركان الإيمان، لا يصح إيمان أحدٍ، إلا أن يكون قلبه عامراً بحب الله -عزَّ وجلَّ-، يحب الله ويحب رسوله -عليه الصلاة والسلام-.

● **لماذا أقول من المهم جداً أن نبني أبنائنا وبناتنا على هذا؟** نحن اليوم أيها الإخوة والأخوات في عصرٍ كثرت فيه المغريات، وكثرت فيه الصوارف، وكثرت فيه النوازع إلى الشر، مهما كنت قوي المراقبة لأولادك، فلن تستطيع أن تكون دائم المراقبة لهم، سيخلون بأنفسهم، سيكبرون، سيذهبون عنك، ستذهب عنهم أنت، لكن اغرس فيهم حب الله وحب الرسول -عليه الصلاة والسلام-؛ لينقادوا إلى الطاعات بيسرٍ وسهولةٍ، انظر إلى تعبير خبيب -رضي الله عنه- هذا، الذي قال هذه الكلمة: والله ما أحب أني في بيتي، عند أهلي يعني، والنبى -عليه الصلاة والسلام- تصيبه شوكةٌ، وليس يُصلب ويُقتل -صلى الله عليه وسلم-، وقد رأيتهم في غزوة أحد، كيف ظهرت بطولات الصحابة -رضي الله عنهم-، التي ترجمت حينهم الصادق له -صلى الله عليه وسلم-.

● هذه ما تُسمَّى بغزوة الرجيع، أو بعثة الرجيع. البعثة أنا قلت التي أثرت في النبي -صلى الله عليه وسلم- ليست هذه، هي التي سيذكرها، وهي قصة بئر معونة، وهذه أيضاً كانت في شهر صفر، في نفس العام، سنة أربع، وذلك أن أبا البراء عامر بن مالك، الذي يُعرف بملاعب الأسنة، قديم على النبي -عليه الصلاة والسلام- في هذا الشهر، فدعاه النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى الإسلام، فلم يُسلم، ولم يُبعد، يعني ما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ولم يُظهر العداوة، لكن قال: يا رسول الله، لو بعثت أصحابك إلى نجدٍ، يعني أشهر ما تكون بالمنطقة الوسطى، وجهة الشمال منها، يعني حائلٌ وهذه المناطق تقريباً، في السعودية حالياً.

● فقال: لو بعثت أصحابك إلى نجدٍ يدعونهم إلى دينهم، لرجوت أن يجيبوهم، قال: **«إني أخاف عليهم أهل نجدٍ»**، مازال هناك تكتلاتٌ وثنيةٌ، موجودةٌ في الجزيرة العربية، لم تُسلم بعد، ولم تؤمن، تلاحظون نحن الآن في السنة الرابعة من الهجرة، مازالت الدولة الإسلامية في ذلك الوقت لم تتمدد، ولم تقوَ بعد، ومازال المناوئون موجودين، مازالوا.

● فقال أبو براء: أنا جازلهم، ما معنى جازلهم؟ أنا أجيرهم، يعني هؤلاء النفر الذين ستبعثهم، هم في ذمتي، أو في جوارِي، فلا أحد يعتدي عليهم.

● فبعث النبي -عليه الصلاة والسلام- سبعين رجلاً على الصحيح، هذا الذي ثابتٌ في الصحيحين، وأمر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي، ولقبه المعنق ليموت، قلنا في الدرس الماضي: **ما معنى المعنق ليموت؟** لما أرادوه بعد أن غدروا بهؤلاء السبعين، لما أرادوا أن يقتلوه، أسرع هو إلى قتالهم، ليموت في سبيل الله، فسُيَّ المعنق، الذي مدَّ عنقه طلباً للشهادة، فلحقه هذا اللقب، المعنق ليموت، وإلا اسمه هو المنذر بن عمرو، فأنت لو كتبت في محركات البحث، أو في الوسائط الإلكترونية، المعنق ليموت، وجدت أن سبب هذا اللقب، هو هذه القصة؛ لأنهم لما غدروهم، أصبحوا الآن، إما أن يستسلموا، وإما أن يستأسروا، يعني يستأسروا، وإما أن يقاتلوا، فأبوا -رضي الله عنهم- أن يستسلموا، فقاتلوا، وحزن عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- حزناً عظيماً، فبقي شهراً كاملاً يدعو، يقنت في الصلاة على عُصبة، ورعلٍ، وذكوان، الذين غدروا بهم وقتلوهم.

● وكان مما وقع، طبعاً من أسباب الحزن، أن هؤلاء كانوا جماعة من القُرَّاء، ومن سادات الصحابة، ما معنى القُرَّاء؟ ما نعبر عنهم اليوم بطلبة العلم، أو بالمشايخ، أو بالعلماء، أنت تصور الآن مجموعةً تذهب دفعةً،

كاملة سبعون عالمًا، أو سبعون طالب علم، ثم يُغدر بهم ويُقتلون، كارثة هذه، لأن قتل العالم، أو قتل طالب العلم، يُقتل به أمة، وليس دم المسلم رخيصًا أيًا كان، لكن يعلو الأثر، أو يعظم الأثر بعظم منزلة المقتول.

فلما نزلوا بئر معونة، وهي أرض يقول بين بني عامر، وحرّة بني سليم، ثم بعثوا منها حرام بن ملحان، حرام بن ملحان هذا خال أنس بن مالك، وهو أخو أم سليم أم أنس، بعثوا بكتابٍ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر به فقتله رجلٌ ضربةً بحربةٍ، من الخلف، جاء إلى حرام بن ملحان، فطعنه من الخلف، فنفذ الرمح أو السيف من الخلف وظهر مع صدره، وفار الدم، فجعل يضعه على رأسه ويقول: فزتُ وربّ الكعبة، سبحان الله، والله يا إخوة، كلما قرأت هذا المقطع، إني أتساءل وأتعجب وأقول: أي فوزٍ وقد ذهبت نفسه؟ لكنه رأى مصداق وعد الله -عزّ وجلّ-، فاز، إي والله فاز، فاز بالجنة، ونحن نشهد لهؤلاء بالجنة؛ لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- أخبر عنهم، ودعا لهم إلى آخره.

وبهذا نعلم أيها الإخوة أن الفوز الحقيقي هو كما قال الله -عزّ وجلّ-: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185].

هذا المعنى أيها الإخوة، الشعور بالفوز، مع إدبار الدنيا، والإقبال من الآخرة، لا يذوقه إلا المؤمنون، لا يذوقه إلا الصادقون، أما غير هؤلاء، فإنهم يجعلون الخسارة هي فقد الدنيا، ويجعلون الفوز هي أن تسلم له دنياه، ويسلم له ماله، أما هؤلاء -رضي الله عنهم- فيقولها: فزتُ، وهو لا يمثّل، هذه لحظة لا تمثّل فيها، كل اللحظات تستطيع أن تلعب على الناس وتمثّل، إلا لحظات خروج الروح، لا يظهر فيها إلا ما استقر في القلب، قال: فزت وربّ الكعبة -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

المهم، ذكر قصة أن هؤلاء قُتلوا جميعًا، ولم يسلم منهم إلا كعب بن زيد -رضي الله عنه-، وهو من بني النجار، فإنه بقي في القتلى، وكأنه منهم، فلما رأى أن العيون اختفت عنه هرب، ورجع إلى المدينة، فعاش حتى قُتل في غزوة الخندق -رضي الله عنه-.

ثم ساق قصة عمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن محمد بن عقبة، كانوا في سرح المسلمين، فلما يعني كانوا في جهة المسلمين، فلما رأى الطير تحوم حول هذه الجثث الطاهرة الزكية، جاء فوجد المشركين قد قتلوا الصحابة -رضي الله عنهم-، كلهم، ولم يسلم منهم إلا رجلٌ واحدٌ.

يقول -رحمه الله-: فنزل منذر بن محمد هذا، فقاتل المشركين حتى قُتل، أما عمرو فأُسر، فلما أخبر أنه من مُضَر، جذ عامرٌ ناصيته، وأعتقه في ما زعم عن رقية كان على أمه، ورجع عمرو بن أمية.

طبعًا القاتل الآن عمرو، وليس هو المقتول؛ لأن عمرو -رضي الله عنه- رجع، فلما كان في مكانٍ يقال له القرقرة من صدرقناة، والقرقرة مكانٌ قريبٌ من المدينة، لكن جنوب شرق، ليس جهة مكة مباشرة، لكن تميل إلى الشرق قليلًا، نزل فجاء رجلان من بني كلاب، وقيل من بني سليم، الذين غدروا بالصحابة -رضي الله عنهم-، فوجدها عمرو فرصةً، فلما ناموا تحت شجرة، اخترط سيفه وقتلهم، لكنه لم يشعر -رضي الله عنه- بأن هؤلاء معهم كتابٌ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلما جاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: لقد قتلت قتيلين، لأديهما، لأنه ما كان يعرف -رضي الله عنه-، كان يظن أن هؤلاء من هؤلاء الذين



غدرُوا، فيستحقان أن يقتلا، ولهذا يقول ابن كثير -رحمه الله-: كان هذا سبب غزوة بني النضير، كما ورد هذا في الصحيح.

• بعد هذا ينتقل ابن كثير -رحمه الله- إلى غزوة بني النضير، وقبل أن أنتقل أشير فقط إلى غزوة بني النضير، وما فيها، سواء غزوة بني النضير أو الرجيع، التي قُتل فيها الستة، خبيب بن عدي وأصحابه، ومرثد بن أبي مرثد، وعاصم بن ثابت -رضي الله عنهم-، أو بئر معونة التي قُتل فيها القُرَاء، فإن هذه فيها دروسٌ وعبرٌ وفوائد، منها:

• أن أمر الدعوة لا يقوم بالقتال فقط، بل بالقتال والعلم، وتثبيت دعائم الدعوة، إنما هو بالعلم أساساً؛ لأن الله أول ما أنزل "اقرأ"، ثم بعد ذلك القتال يأتي تبعاً، وليس العكس، كما يفهمه بعض الجهَّال، أو يظن أن القتال هو الأصل، لا، القتال تابعٌ، والعلم هو الأصل، بدليل أن الله تعالى أمر المسلمين ثلاث عشرة سنةً أن لا يرفعوا سيفاً واحداً في مكة، بل "أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة"، فالقتال ليس مقصوداً لذاته، وإنما مقصودٌ لغيره ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39]، هذه نقطة.

• النقطة الثانية: مشروعية صلاة ركعتين عند القتل، فإن قلت: كيف صار مشروعاً، والنبي -عليه الصلاة والسلام- ما رأى هذا الموقف؟ فيقال: بلغه فأقره -صلوات الله وسلامه عليه-، وفي هذا ما كان عليه النبي -عليه الصلاة والسلام- من الحزن والتفجع لما يصيب أصحابه -رضي الله عنهم وأرضاهم-، وفيه أيضاً مشروعية القنوت، التي أشرنا إليها قبل قليل، وإن لم يذكرها ابن كثير، فإنه بقي -عليه الصلاة والسلام- يقنت شهراً ويقول: «اللَّهُمَّ الْعَن بَنِي لُحْيَانَ، وَرِعْلاً وَذَكْوَانَ، وَعَصِيَّةَ عَصَاوَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، اللهم عليك بفلانٍ، وفلانٍ، وفلانٍ، وفلانٍ، اللهم انج كذا.

• وكذلك أيضاً منها: الصحابة -رضي الله عنهم- في هذه المواقف عبَّروا عن صدق حُبهم لرسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ومن ذلك ما قاله خبيب، لما سأله أبو سفيان: أتحب أن يكون محمدٌ في مكانك؟

• قصة بني النضير باختصارٍ، لما أراد النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يذهب إلى بني النضير في قصة مقتل عمرو بن أمية للرجلين، من أجل أن يستعين على دية هذين القتيلين.

• يقول ابن كثير: لما بينه وبينهم من الحلف، يعني يُفترض في الحلف أنه إذا احتاج المتحالف معك إلى شيء، أن تعينه، قالوا: نعم، فجلس النبي -عليه الصلاة والسلام-، وأبو بكر، وعمر، وعليٌّ، وطائفةٌ من الصحابة تحت جدارٍ لهم، وهم في الخفاء، وفي الخلف، اجتمعوا اجتماعاً قرروا فيه الغدر، لاحظ، فقالوا: فرصةٌ الآن، الرسول، وأبو بكر، وعمر، وهؤلاء تحت الجدار، فرصةٌ لنقتلهم، أرادوا أن يأتوا برحى، الرحى هذه التي يُطحن فيها القمح والعيش، مَنْ يُلقي الرحى على رأسه من أجل أن يموت، فجاء الوحي ليُخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- عما همُّوا به، فقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «انْهَضُوا»، وكان هناك رجلٌ اسمه عمرو بن جحاشٍ -لعنه الله- هو الذي انتدب لهذه المهمة، لكن أنجى الله -عزَّ وجلَّ- رسوله، فلم يبلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة، حتى عبَّأ الصحابة -رضي الله عنهم-، وحَثَّهم على القتال، فخرج إليهم، واستخلف ابن أم مكتوم، في ربيع الأول، فحاصره النبي -عليه الصلاة والسلام- ست ليالٍ، وفي تلك الفترة حُرِّمت الخمر، كما ذكره ابن حزم هنا، ويقول: لم أره لغيره، فكأنه يشير إلى أنه ليس بالقوي.

- هنا لاحظ صورةً من صور التحالف بين المنافقين واليهود، جاء عبد الله بن أبيّ، وهذا ترى ذكره الله -عزّ وجلّ- في سورة الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ \* لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ [الحشر: 12]، يقول -رحمه الله-: إن عبد الله بن أبيّ قال لبني النضير: أنا معكم، سأقاتل معكم، إن خرجتم خرجنا معكم، فهؤلاء المساكين، اغتروا بهذا الكلام، فتحصنوا في الآطام، التي هي الحصون، فأمر النبي -عليه الصلاة والسلام- بقطع النخيل، وإحراقها، وفي هذا يقول حسان بن ثابت:

### وهان على سرات بني لؤيّ حريق بالبويرة مستطير

- فسألوا النبي -عليه الصلاة والسلام- نوعاً من التخفيف: لأنهم شعروا أن الأمر الآن متجهٌ إلى القضاء عليهم وهلاكهم، فسألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يُجلبهم، انظر سبحانه الله ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: 96] وأن يحقن دماءهم، ما هو الشرط؟
- أن يخرجوا وليس لهم إلا ما حملت إبلهم، غير السلاح، يعني احملوا ما تشاءون من الأمتعة على الإبل، ما سوى ذلك يبقى.
- فقيل النبي -عليه الصلاة والسلام- ذلك، وخرج أكابرهم، حُي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، بأهلهم وأموالهم إلى خيبر، فبقيت لهم هناك، يعني ذهبوا، وبعضهم ذهب إلى الشام، ولم يُسلم منهم إلا رجلان، كما ذكر ابن كثير، سعد بن وهب، ويمين بن عمرو بن كعب.
- استطرد -رحمه الله- في هذا الموضع كثيراً، لكن يقول -رحمه الله-: وقد كان جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- لمن قتل عمرو بن جُحاشٍ جُعلاً، لما قد همَّ به من الفتك بالنبي -عليه الصلاة والسلام-، في القصة التي قبل قليل، فأحرز أموالهم، وقسم النبي -صلى الله عليه وسلم- أموال الباقيين بين المهاجرين الأولين خاصةً، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حيي بن الأنصار، أعطاهم لفقرهم، وقد كانت أموالهم مما أفاء الله على رسوله، والتي ذكر الله -عزّ وجلّ- في سورة الحشر، كما قال الله -عزّ وجلّ-: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: 7]، ثم قال الله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾، هذا أيضاً نوعٌ لبيان نصيبهم -رضي الله عنهم-.
- قال: فما أوجف المسلمون عليهم بخيلٍ ولا ركابٍ، يعني ما حصل هناك قتالٌ، وهذه منّةٌ امتنَّ الله -عزّ وجلّ- عليهم بها في سورة الحشر، وفي هذه الغزوة نزلت سورة الحشر، وكان عبد الله بن عباس يسميها غزوة بني النضير، وهذه السورة من السور التي ذكر لها أكثر من اسمٍ، وهذا معروفٌ في لسان الصحابة، أحياناً يسمون بعض السور بحسب الأحداث التي نزلت بها، ومر معنا نموذجٌ لهذا، تذكرون؟
- سورة القتال.
- يقول: وقتنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعو على الذين قتلوا القُرّاء أصحاب بئر معونة.
- في غزوة بني النضير دروسٌ وعبرٌ، منها:

□ أن اليهود قومٌ بُهتٌ، أصحاب غدرٍ، وهذا طبعٌ فيهم، ولا يحتاج إلى تأكيدٍ، وأحداث اليوم التي نراها شاهدةٌ للعيان، فهم لا يكادون يستمرون على هدنةٍ، متى ما رأوا أن الأمور مواتيةٌ لهم غدروا، وهذا طبعٌ فيهم ودينٌ.

□ لما تكلم على قصة التحريق، أن تحريق ذوات الأرواح، إذا كان تبعاً لا قصداً، فإنه جائزٌ، من أين نأخذها؟ من تحريق النبي -صلى الله عليه وسلم- للنخيل، ومعلومٌ أن النخيل فيها حشراتٌ، وفيها نواصم، وفيها دويباتٌ صغيرةٌ، من ذوات الأرواح، لكنها ليست مقصودةً لذاتها، إنما جاءت تبعاً، أما إحراق ذوات الأرواح أصالةً، فإنه لا يجوز؛ لقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**لَا يَعْذِبُ بِالنَّارِ إِلَّا رُئُهَا**».

□ أن ما ربحه المسلمون من غنائم العدو دون قتالٍ، فمصرفه للإمام، ولا يجب تقسيمه بين الجيش : لأنه قد مرَّ معنا قبل قليلٍ أنه خصَّ بذلك المهاجرين الأول، وإنما أعطى أبا دجانة، وصحابياً آخر لفقرهم.

إذن، الفيء الذي يأتي بدون قتالٍ، يتصرَّف الإمام في قسمته، بينما الفيء الذي فيه قتالٌ، فقد قسمه الله -عزَّ وجلَّ- في سورة الأنفال ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 41]، إلى آخر الآية الكريمة.

□ أن نقض العهد يعني إعلان الحرب، فهؤلاء بنو النضير، لما همُّوا بقتل النبي -صلى الله عليه وسلم- في قصة عمرو بن جُحاش، وأخذ الرحي، اعتبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هذا نقضٌ للعهد، ومعناه إعلان الحرب، ولهذا هنا لا يُقال لهم: ترى سنقاتلكم، من الذين يجب أن يُرسل إليهم؟ هم الذين بيننا وبينهم عهدٌ، ونريد أن نلغي هذا العهد، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: 58] يعني قل لهم: ترى العهد انتهى، حتى لا يُظنَّ بالمسلمين السوء، وأنهم قومٌ غدرٌ، وأنهم لا يفون بالعهود والمواعيد، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

• ثم انتقل المؤلف -رحمه الله تعالى- إلى الكلام على غزوة ذات الرِّقاع، وهي غزوةٌ في جمادى الأولى من السنة الرابعة.

• استعمل فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- أبا ذرَّ الغفاري.

• يقول ابن كثير: سار حتى بلغ نخلاً، نخل هذه أو نخلة، موضعٌ بين مكة والطائف، ومعلومٌ الطائف جهة نجدٍ، وذات الرِّقاع أصلاً المعركة كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- هي في جهة نجدٍ، فلقي جمعا من غطفان، غطفان يتواجدون في تلك المناطق، ولكن لم يكن بينهم وبينهم قتالٌ، لكن أشار الحافظ إلى قضية متى فرضت صلاة الخوف، ولكن هذا ليس موضعه، سيأتي -إن شاء الله- ذكره، والإشارة إليه في غزوة الخندق، الصحيح أنها فرضت بعد غزوة الخندق، وليست في غزوة ذات الرِّقاع، وأهل السير اختلفوا، هل غزوة ذات الرِّقاع قبل غزوة الخندق؟ أم بعدها؟ بينهم خلافٌ قديمٌ، وهذا فيه تفاصيل، لكن ليس هذا موضعها، إنما ابن كثير نفسه، لما جاء إلى غزوة ذات الرِّقاع في "البداية والنهاية"، قال: وكنا ذكرناها في أحداث سنة أربع للهجرة، تبعاً لمن أظن قال لموسى بن عقبة، أو غيره من المؤرخين، ثم قال: فلتنقل هاهنا، فجعلها في أحداث سنة ستٍ من الهجرة، وهذا هو الأقرب، لكن يبدو أن ابن كثير في هذا السياق تابع جماعةً من أهل العلم.

- على كل حال، يقول -رحمه الله-: ومما رجَّح فيه أن غزوة ذات الرِّقَاع في سنة ستٍّ من الهجرة، أن أبا موسى الأشعري، أحد الذين حضروا هذه الغزوة، وأبو موسى لم يكن حاضراً قبل غزوة الخندق، وهذا بالمناسبة مما يُستفاد منه، وهو إعمال القرائن التاريخية، في الترجيح بين الأقوال عند الاختلاف، من هذه القرائن ما أشار إليه ابن كثير -رحمه الله- هاهنا، ولذلك هو استطرد كثيراً، وليس هذا الحقيقة موضعٌ للكلام، لكنه قال هنا: وقد عُلم بلا خلافٍ، أن غزوة عسفان، كانت بعد الخندق، فاقضى هذا، أن ذات الرِّقَاع بعدها، بل بعد خيبر، لاحظ، إذن بعد خيبر فستكون في السنة السابعة، قال: ويؤيد ذلك أن أبا موسى الأشعري، وأبا هريرة -رضي الله عنهما- شهداها، وأبو هريرة في قول جماهير أهل العلم لم يُسلم إلا عام خيبر، وخيبر في قول الجمهور أيضاً لم تقع إلا شهر محرم السنة السابعة، اضبطوا هذا.
- ولهذا أبو موسى الأشعري يقول في الصحيحين: **شهدت غزوة ذات الرِّقَاع، والسبب أنهم كانوا يلفون على أرجلهم الخرق لما نقبت، يعني حصل فيها خُرُوق.**
- ثم استطرد في ما يتعلق بحضور أبي هريرة، ثم قال: وقد قال بعض أهل التاريخ: أن غزوة ذات الرِّقَاع أكثر من مرة، وهذا ليس بصحيح، هذا من الأساليب التي يلجأ إليها بعض العلماء عند تعذر الجمع عنده، وهو ما يُعرف بتعدد القصة، والواقع أن مثل هذه الغزوات الكبار، لا يصلح أن يُقال فيها: إن القصة قد تعددت، خاصةً أنها ارتبطت بحدثٍ كبيرٍ، بل يلجأ، والأولى اللجوء إلى الترجيح.
- ثم ذكر أن بعض المؤرخين ذكر أن قصة جمل جابر، وقعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هذه الغزوة، قال: وفي ذلك نظرٌ؛ لأنه جاء أن ذلك كان في غزوة تبوك، إلا أن هذا أنسب، لما أنه كان قد قُتل أبوه في أحد، وترك الأخوات، فاحتاج أن يتزوج سريعاً، لا يهمله الترجيح هنا؛ لأن من العلماء من رجَّح أنها في غزوة ذات الرِّقَاع، وليس في تبوك، كما ذكر الحافظ.
- ومنها حديث جابر في الرجل الذي سبوا امرأته، فحلف لهريقن دمًا في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فجاء ليلاً، وقد أُرصد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجلين، ريئنةً للمسلمين من العدو، وهما عباد بن بشر، وعمار بن ياسر.
- يقصد بالريئنة هنا: أشبه ما يكون بالطليعة، الذي يحرس القوم، وفي تلك القصة جاء سهْمٌ غربٌ، فأصاب عباد بن بشر، وهو قائمٌ يصلي، فنزعه، ولم يبطل النبي -عليه الصلاة والسلام- صلاته، ويحتج بهذا من يحتج من الفقهاء الذين يقولون إن الدم إذا أصاب بدن المصلي، فإنه لا ينجس، ولكن جماهير أهل العلم بل حُكي إجماعاً أن هذا الدم نجسٌ، ولكن عُفي عنه للضرورة.
- ثم أيضاً جاء قصة غورث بن الحارث، وهو الرجل الذي جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ووجده مستظلاً تحت شجرة، فاستل سيفه، فقال: من يمنعك مني؟ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«الله»**، فسقط السيف من يده، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«من يمنعك مني؟»**، فقال: كن خير آخذٍ، طيب أين الأخلاق قبل قليلٍ، ليست موجودةً، فعفا عنه النبي -صلى الله عليه وسلم-، بعد أن دعا الصحابة، وقال: إن هذا الرجل اخترط سيفي، وو، فعفا عنه النبي -عليه الصلاة والسلام-، وأطلقه -صلوات الله وسلامه عليه-.



- المهم أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يعني كأنه يميل إلى ماذا؟ إلى أن غزوة ذات الرِّقاع كلها جاءت متى؟ بعد غزوة خيبر، فكون في السنة السابعة.
- ثم بعد ذلك أشار إلى غزوة تُسَمَّى بدر الصغرى، الآن مر معنا بدرٌ، وبدرٌ، وهذه الثالثة أيضًا، مرت معنا قديمًا، وذلك أن أبا سفيان لما انتهت غزوة أحد، قال: موعدكم وإياكم بدر العام المقبل، فأمر النبي -عليه الصلاة والسلام- بأن يجيبه بنعم، فلما كان شعبان في هذه السنة يقول: نهض الرسول -صلى الله عليه وسلم-، حتى أتى بدر الموعد، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي، عبد الله صحابيٌ جليلٌ، وأبوه رأسٌ في النفاق، لتعلم أن الله يخرج الحي من الميت، فبقي ثمانى ليالٍ، ولكنه لم يلق كيدًا، وذلك أن أبا سفيان خرج بقريش، فلما كان ببعض الطريق، بدا لهم أن يرجعوا، لأجل الجذب الذي أصيبوا به، وهذه تُسَمَّى بدر الثالثة، أو بدر الموعد.
- جاءت بعد ذلك غزوة دومة الجندل، وهذه وقعت في ربيع الأول من سنة خمسٍ، كذلك رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها، ولم يلق حربًا، وقد استعمل على المدينة سباع بن عرفطة -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-.
- هذه أشهر أحداث السنة الرابعة، إلى غزوة الخندق، فإن أشهر غزوةٍ في سنة خمسٍ، هي غزوة الخندق، وهي المعروفة بغزوة الأحزاب، ومن المعلوم أن غزوة الأحزاب سميت بهذا لتحزُّب الأحزاب، كما سيشير الحافظ -إن شاء الله تعالى- بعد قليلٍ لتحزُّب الأحزاب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، من القبائل الذين كانوا حول المدينة، ومنهم أيضًا كانوا خارج المدينة.
- يقول -رحمه الله-: وفصلٌ يشتمل على ملخص غزوة أحد، التي ابتلى الله فيها عباده المؤمنين، وزلزلهم، وثبَّت الإيمان في قلوب أوليائه، وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق، وفضحهم، وقرَّعهم، يعني وبَّخهم، ثم أنزل نصره، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وأعز جنده، وردَّ الكفرة بغيظهم، ووقى المؤمنين شركيدهم، وذلك بفضلِه ومنَّه.
- ثم قال: وحرَّم عليهم شرعًا وقدرًا أن يغزوا المؤمنين بعدها، يشير بذلك إلى قول النبي -عليه الصلاة والسلام- في صحيح البخاري، من حديث سليمان بن صرد: «**الآن نغزوهم ولا يغزونا**»، فكانت غزوة الخندق تعتبر من الغزوات التي حصل فيها تحوُّلٌ كبيرٌ في السيرة النبوية، وفي الغزوات العسكرية، ما هو التحوُّل؟: أنه لم يستطع المشركون بعد غزوة الخندق أن يغزوا المدينة أبدًا، بل كان الغزو كما يقال باتجاه واحدٍ، يعني في أول الأمر كانت الحروب كما قال أبو سفيان، لما كان عند هرقل: الحرب بيننا وبينه سجالٌ، كانوا يُغزون ويَغزون، لكن بعد غزوة الخندق، وقد وقعت سنة خمسٍ، وفي شهر شوال تحديدًا، لم يقع بعد هذه الغزوة من الكفار غزوٌ للمسلمين، بل كان الغزو بعد ذلك من المسلمين لهم.
- أشار ابن كثير -رحمه الله- إلى أن الصحيح أنها وقعت في شهر شوال من سنة خمسٍ، وأشار إلى خلافٍ، قال: والصحيح الذي لا شك فيه: أنها سنة أربع، في قول موسى بن عقبة.
- أنا فقط أشير فقط لأننا لا نريد أن ندخل في التفاصيل، هذا يشتتنا في موضوع متى ومتى، أود أن أشير فائدةً لطلاب العلم، في ما يتعلق بمغازي موسى بن عقبة، هو إمامٌ، وكان الإمام مالك -رحمه الله- يُثني على مغازي موسى بن عقبة، لكن للفائدة وأظن هذا نهت عليه في أوائل الدروس، وهو أن موسى بن عقبة -رحمه الله-،

كان عنده تأخيرٌ في السنوات سنةً واحدةً، فكان يؤرخ بدر في السنة الأولى، وكان يؤرخ أحد في السنة الثانية، فلما جاء إلى الخندق، أرّخها في السنة الرابعة، فإذا عرفنا منهجه في هذا، أمكننا أن نرد قول موسى بن عقبة إلى قول الجمهور فقط.

- ثم ناقش ابن حزم -رحمه الله- كلامًا لسنا بحاجةٍ إليه، لكن الذي يهمنا هنا حديثه -رحمه الله- عن سبب الغزوة، ما سبب غزوة الخندق؟
- سبب الغزوة كما ترون في الشاشة، أن نفرًا من يهود بني النضير، الذين أجلاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من المدينة إلى خيبر، الذين مر ذكرهم قريبًا، لما أخرجهم بما حملت دوابهم، غير السلاح فقط، الذين أجلاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى خيبر، كسّام بن حقيق، وابن مشكم، وغيرهم، خرجوا إلى قريش بمكة، فألبوهم على حرب النبي -صلى الله عليه وسلم-، انظر، قومٌ عُدر، يعني يفترض أن يقابلوا قبول النبي -عليه الصلاة والسلام- بالسماح عنهم، وعدم قتلهم، وإجلالهم إلى خيبر، أن يقابلوا ذلك بالشكر، لكنهم قومٌ عُدر، قومٌ لا يفون بعهدٍ، وقومٌ فيهم حقدٌ عظيمٌ على المسلمين، وهذا ثابتٌ، قال الله -عز وجل-: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: 82]، لاحظ، اليهود التقوا مع المشركين، فاجتمع كما يقال الضعفت والإبانة.
- فقال هؤلاء اليهود -قبّحهم الله ولعنهم-: نحن معكم، وسننصركم، فتورّط المشركون في هذه الدعوة، فخرجوا إلى غطفان أيضًا، وهم من القبائل التي تقترب من الطائف، وهم الذين قاتلهم النبي -عليه الصلاة والسلام- بعد، كما سيأتي -إن شاء الله- في غزوة حنين.
- فدعواهم أيضًا، وخرجت قريش، وقائدهم أبو سفيان، سبحان الله، في أكثر من غزوة يقف أمام النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم ينول أمره إلى الإسلام بعد.
- وعلى غطفان عُيينة بن حصن الفزاعي، كلهم في نحو عشرة آلاف رجلًا، فلما سمع النبي -عليه الصلاة والسلام- بمسيرهم إلى المدينة، أمر بحفر الخندق، وكان هذا اقتراحًا من سلمان، لاحظتم بركة المشورة؟
- وفيه سلمان اقترح، من الذي نفّذ؟ المسلمون، إذن نوّكد على المعنى هذا أيها الإخوة والأخوات، الذي مر معنا أكثر من مرة، ليس بالضرورة أنك لا تخدم الدين إلا إذا نفذت بنفسك، اقترح ولو فكرةً، اكتب ولو فكرةً، اخدم الإسلام ولو بفكرةً، فكّر للإسلام، اخدم دينك ولو بتدوين بعض المقترحات، ودع غيرك ينفّذ، ليس بالضرورة أن تنفذ كل الفكرة، تنفذ بعضها.
- فيقول: وكان هذا بشاريةً من سلمان، فعمل المسلمون مبادرين هجوم الكفار.
- يقول: وكان في حفره آياتٌ مفصّلةٌ يطول شرحها، وقد بُسطت هذه في كتب السير، وذكر الإمام مسلم في صحيحه، والبخاري جملةً من هذه الأخبار، وأهل السير أيضًا يذكرون شيئًا من ذلك، من ضمنها أنه -عليه الصلاة والسلام- لما كانت الشدة قد بلغت مبلغها، عرضت لهم كديةً، فدعوا النبي -عليه الصلاة والسلام- فضربها بمعوله الذي معه، فانهاالت كثيرًا، فقال -عليه الصلاة والسلام-: «الله أكبر! إني أرى قصور بصرى»، هذه في سوريا الآن، وهو في المدينة، الله أكبر! أي درسٍ أبلغ من هذا في الفأل أثناء الأزمات، فلا نامت أعين المتشائمين.

- اليوم كثيرٌ من المسلمين بعضهم دعاةً أحياناً وطلبة علمٍ، حينما يرى ما أحيط بالمسلمين من شرورٍ، وأحيط بالمسلمين من ضعفٍ، وهوانٍ، و و و، يقف ويقول: خلاص، والله قبل يومين اتصل بي طالب علمٍ من مصر، يشكو الحال الذي يعيشونها، قال: نتوقف عن الدعوة، قلت: يا رجل، اتق الله ولا تقف، ادع إلى الله بما تستطيع، أرأيت لو أن الوادي الذي أنت فيه، لو كنت ساكنًا في وادٍ، أو جلست في وادٍ، ثم سمعت من بعيد، أو جاءك خبرٌ، أن الوادي قد جرى بالماء، وأمامك عشرةٌ أنفُس، واستطعت أن تنقذ واحدًا من هؤلاء العشرة، أليق بك شرعًا أو عقلاً أن تترك هذه النفس الواحدة التي تستطيع أن تنقذها لأنك لا تستطيع أن تنقذ التسعة؟ لا يجوز، أنقذ ولو نفسك واحدةً، لا يكلفك الله أكثر مما تستطيع.
- إذن، لا تشاؤم، كيف تتشاءم ورسولك -عليه الصلاة والسلام- يتفائل في أحلك الظروف؟ ويكثر، ويأتيه خَبَاب بن الأرت، وهو متوسدٌ ببردةٍ في ظل الكعبة، في مكة، ويقول: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا، ألا ترى ما نحن فيه؟ ثم يعاتبه النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو يبشّره ويقول: **«والله ليتمنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».**
- ثم هنا الله يقول: **﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾** [الأحزاب: 10]، ثم يقول: **«الله أكبر!، أوريث قصور كسرى»**، وهنا ينقسم الناس في أوقات الشدائد إلى قسمين، المجتمع ينقسم إلى قسمين، المؤمنون ماذا يقولون؟ **﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾** [الأحزاب: 22]، كل ما اشتدت الأزمة على المسلمين، تزداد يقينًا، بأن هذا إيذانٌ بقرب النصر، ولذلك ابن القيم في تعليقه على فوائد غزوة أحد، في "زاد المعاد" قال: وفي هذا من الدروس أيضًا: أن أعداء الله ورسوله، إذا اشتد بغضهم، وفعل المسلمون ما بوسعهم، انتصر الله -عزَّ وجلَّ- لهم، وتكلَّم بكلامٍ على قضية سوء الظن إلى آخره، في غزوة الخندق، القسم الثاني من الناس ماذا قالوا: **﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾** [الأحزاب: 12].
- فإياك إياك أخي وأختي، أن يتسرَّب إلى قلبك داءُ اليأس، أو داءُ القنوط، أو داءُ الإحباط، اعمل بما تستطيع، بكلمة، اعمل بالتزامك، باستقامتك على أمر الله، المسلم الرجل في مظهره، المرأة في مظهرها، بحفاظها على حجابها، بحفاظها على عفتها وحشمتها، اعتزازها بدينها، كل هذه وسائل من وسائل الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، وتثبيت المؤمنين، أما أن نتخلى أو نقصر بحجة أننا لا نستطيع أن نكسب في هذه الفترة إلا عشرةً بالمائة أو عشرين، دعنا نكسب ولو واحدًا بالمائة، أهم شيء أن نلقى الله ونحن ثابتون على الطريق، ثابتون على دينهم، ثابتون على مبادئنا، ولا يكلف الله -عزَّ وجلَّ- لا يكلف الله نفسه إلا وسعها.
- فيقول: فنزلوا حول المدينة، كما قال الله: **﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾** [الأحزاب: 10]، وخرج النبي -صلى الله عليه وسلم-، فتحصَّن بالخندق، في ثلاثة آلافٍ على الصحيح من أهل المدينة.
- وزعم ابن إسحاق أنهم كانوا في سبعمائة، وهذا غلطٌ من غزوة أحد، والله تعالى أعلم.
- يقول: فجعلوا ظهورهم إلى سلعٍ، وسلعُ جبلٍ معروفٌ في المدينة، وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنساء والذراري فجعلوا في أطام المدينة، ما الأطام؟ الأسوار المرتفعة، أشبه ما تكون بالقلاع، كل ذلك صيانةً

للأعراض، حتى لو وقع، لأنه تذكرون في غزوة أحد، قبل سنتين يُخشى أن يلتف المشركون، وعددهم هذه المرة، ثلاثة أضعاف العدد السابق، كانوا في أحد ثلاثة آلاف، هنا عشرة آلاف، يعني ثلاثة أضعاف والثلث، والعدد هذا ضخّم وكبير، لك أن تتصوره في بلدٍ أشبه ما يكون بالمدينة الصغيرة اليوم، بلدٌ حوله عشرة آلاف، فكان هذا غاية ما يكون من الحكمة، بينما العدد في أحد كان أقل، ومع ذلك احتاط النبي -عليه الصلاة والسلام- وجعل مكانه في أحد قريباً من المدينة، في ما لو حصل ما حصل، وإذا المسلمون يزدودون عن أعراضهم.

- يقول: فجعلوا في أطام المدينة، واستخلف عليها ابن أم مكتوم، انظر إلى هذا الرجل المبارك، الذي عاتبه الله - عزَّ وجلَّ- فيه، فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى \* أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: 1، 2]، لا تحتقر أحد، لا تقول هذا مشلول، هذا أعرج، هذا أعمى، هذا أصم، والله إن من هؤلاء من يخدم الإسلام أكثر من أولئك النشيطين الممتعين بجوارحهم، فالمسألة مسألة قلبٍ وهمٍ وعقلٍ يعمل لهذا الدين.
- قال: وانطلق حيي بن أخطب النضري، يعني من بني النضير، إلى بني قريظة، فاجتمع بكعب بن أسد رئيسهم، فلم يزل به حتى نقض العهد، انظروا الآن بني النضير، ثم بني قينقاع الآن، فنقضوا العهد الذي كان بينه وبين النبي -عليه الصلاة والسلام- ووافق كعب المشركين على حرب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فسُرُّوا بذلك، وبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- السعديين بن معاذ وابن عباد، وخوات بن جبير، وعبد الله بن رواحة، ليعرفوا يتأكدون، وهذا فيه درسٌ، وهو التَّثَبُّتُ، لا يحملنك حال الحرب، أو حال البُغض أن تحكم قبل أن تثبت؛ لأن المسألة ليست بالسهلة.
- فهل نقضوا أو لم ينقضوا، فلما قربوا منهم وجدوهم مجاهرين بالعداوة، والغدر، فتسأبوا، ونال اليهود -عليهم لعائن الله- من النبي -عليه الصلاة والسلام-، فسبَّهم سعد بن معاذ، وانصرفوا عنهم.
- وقد أمرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إن كانوا نقضوا أن لا يفتوا في أعضاء المسلمين، يعني لا يعلنوا هذا الخبر، حتى لا يقع في قلوب المسلمين وهن، لئلا يقع وهنٌ، وأن يلحنوا لحناً، يعني يشيرون إشارةً.

وصلى الله على نبيينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

